تاريخ شعراء العربية

شعراء العصر العباسي الأول

الحسين بن مطير



إعداد وشرح

لجنة التحقيق في دار القلم العربي

مراجعة وتدقيق

أحمد عبد الله فرهود



منشورات

دار القلم العربي بحلب

الطبعه الأولى

١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م

عنوان الدار

سُورِيَة - حَلَبْ - خَلفَ الفُندُقِ السِّياحِي

شارع هدى الشعْرَاوي

هاتف | ٢١٣١٢٩ | ص.ب |٧٨| فاكس ٠٢١٠٢١٢٣٦١

بسم الله الرحمن الرحيم

بلدته وبداوته

الحسين بن مُطَيْر بن مكمّل ، الأسديُّ بالولاء ، من مخضرمي الدولتين الأموية والعبّاسيّة ، شاعرٌ راجزٌ ، جمع الدكتور مُحْسِن غياض شعره ، ولم يَبْقَ له أشعار كثيرة .

والحسينُ بن مطير من أهل الجزيرة العربية ، من قرية يقال لها زبالة ، في الطريق بين الكوفة ومكّة ، وكان الحسين يتزيّا بزيّ البَدْو ، ويذهبُ في كلامه أيضاً مَذْهَبَ الأعراب ، ويتأثّر بعالم الصحراء ، ولكنّه اتّصل أيضاً بالمدن وما فيها من حضارة ، وأقبل هنالك على الثقافة ، وبذلك اكتسب شعره معاني مدنيّة ، وملامح حضاريّة ، وأغنى الحسين بن مطير قصائده بمعان ابتكرها وموضوعات استحدثها وأساليب جديدة ابتدعها ، وخيال رائع بعيد .

بين القديم والجديد

يجمع الحسين بن مطير في شعره بين النهج التقليدي القديم في إنشاء القصيدة ، والأسلوب المستحدث الجديد ، أو بعبارة أدقّ يجمع بين النهج القديم والأسلوب الذي استحدثه في نطاق النزعة إلى التجديد ، ومن خلال النّبوغ الذي دفع به إلى أن يأتي بصور جديدة ومعان حديثة وقعت موقعَ الرضى عند كثير من النّقّاد والمتأدّبين على أيّامه . فكان أبو عبيدة (معمر بن المثنى) يقول في شعر الحسين بن مطير : إنه ليقع من شعره الشيء بعد الشيء ، فيكثر تعجّبي من كثرة بدائعه . ويقول عبد الله بن المعتز في قصائد الحسين : هذا شعر كأنّه الديباج ، بل نظم الدرّ في حسن وصف ، وإحكام رصين . وذكر ياقوت

الحموي في معجم الأدباء أنه من الفحول . والحسين بن مطير من الشعراء القليلين الذين أجادوا القول في الرجز والقصيد . من أمثال أبي نخيلة السعدي وابن ميّادة .

في أيّام بني أميّة

عاش الحسين بن مطير في زمان الدولتين الأموية والعباسيّة ، إلا أنّ أخباره مع الأمويين قليلة ، شأنه كشأن معظم الشعراء المخضرمين الذين شهدوا عصر بني أمية وعصر العباسيين ، إذ كانوا يحرصون ألا يثيروا حفيظة بني العباس وألا يبوءوا بسخطهم وانتقامهم ، وكان جُلُّ الخلفاء العباسيين أولي سَطْوة وكانوا في الوقت نفسه على مستوى عالٍ من الثقافة الأدبية والعلمية ، ومن هنا لا نرى في المصادر أثراً لمدائحه في الوليد بن يزيد وأمثاله ممن كان يفد عليهم .

وفوده على معن بن زائدة والي اليمن

دخل الحسين بن مطير على معن بن زائدة والي اليمن ، وأنشده :

أتيتُكَ إذْ لم يَبْقَ غيرُكَ جابرٌ ... ولا واهبٌ يُعْطي اللُّهَا والرَّغائبا (١)

فقال له : يا أخا بني أسد ، ليس هذا بمَدْح ، إنّما المدح قولُ نهار بن توسعة في مسمع بن مالك :

قَلّدتْــهُ عُــرَى الأمورِ نزارٌ ... قبــلَ أنْ يَهْلِكَ السَّــراةُ البُحورُ (٢)

فغدا إليه بأرجوزة يمدحُه بها ، فاستحسنها ، وأجزلَ صلته .

---

(١) اللُّهَا : جمع لُهْوة ، وهي العطيّة .

(٢) السَّراة : جمع سَرِيّ ، وهو السيد الشريف . أي فُضِّل واختير والياً من بين الأماجد ، قبل أن يذهبوا ونهار بن توسعة قائل هذا البيت كان من الشعراء المقدّمين في خراسان أيام بني أميّة .

عينيّته في معن ، ومكافأة المهدي له

حجَّ المهديّ ، فمرَّ في طريقه من بغداد إلى مكّة ببلدة الحسين بن مطير ((زبالة)) ، فدخل عليه الحسين بن مطير ، فقال :

أضحَتْ يمينُكَ مِنْ جـــودٍ مصـــوَّرَةً
لا بل يمينُكَ منها صورةُ الجودِ (١)
مِنْ حُسْنِ وجهِكَ تُضحي الأرضُ مشرقةً
ومِــنْ بَنَانِكَ يجري الماءُ في العُودِ

فقال المهدي : كذبْتَ . قــال : ولِمَ ذاكَ يـا أميرَ المؤمنين ؟ قـال : هـل تركْتَ في شعرك موضعاً لأحد بعد قولكَ في مَعْن بن زائدة ؟ : (رثاء)

أَلِمَّـــا على مَعْــنٍ وقــولا لقبـــرِهِ
ســقتْكَ الغــوادي مَرْبعاً ثمّ مَرْبعا (٢)
فيــا قبــرَ معــنٍ أنــتَ أوّلُ حُفْـــرة
مـن الأرضِ خُطَّتْ للمكارم مَضْجعا (٣)
ويا قبــرَ مَعْـنٍ كيـفَ واريْـتَ جـودَهُ
وقد كان منـه البرَ والبحرُ مُتْرَعا ؟ (٤)

---

(١) مصوَّرة : مخلوقة .

(٢) أَلِمّ : قصد ، زار . الغوادي : جمع غادية ، وهي الغمامة الصباحية . المربـع : الغيـث العظيم .

(٣) خُطّت : شُقّت ، جُعلت .

(٤) وارى : ستر . مترع : ملآن .

بلى قد وَسِعتَ الجودَ والجودُ ميّتٌ
ولو كان حيّاً ضِقتَ حتى تصدّعا (١)
ولمّا مضَى مَعْنٌ مضَى الجودُ وانقضَى
وأصبحَ عِرْنينُ المكارمِ أجْدَعا (٢)
وما كانَ إلا الجودَ صورةُ وجهِه
فعاشَ ربيعاً ثمّ ولّى وودّعا (٣)
وكنتَ لدارِ الجودِ يا مَعْنُ عامراً
وقد أصبحتْ قَفْراً من الجُود بَلْقعا (٤)
فتىً عِيشَ في معروفِه بعد موتِه
كما كان بعد السَّيْل مَجْرَاه مَرْتَعا (٥)
تمنَّى أناسٌ شَأْوَه من ضلالهم
فأضْحوا على الأذقان صَرْعى وظُلَّعا (٦)

(١) لولا أن معناً مات لما وسعه القبر ، بل كان سوف يتصدَّع إذا دخل إليه معن بسبب عظمة ذلك العاهل الجواد . تصدَّع : تتصدّع . وفي ((الجود)) الأولى استعارة تصريحية ، لأنّ المراد معن بن زائدة .

(٢) العِرْنين : ما صلب من عظم الأنف حيث يكون الشَّمَم . أجدع : مقطوع .

(٣) الجود صورة وجهه : تشبيه بليغ مقلوب ، فيه تجسيد للكرم .

(٤) بَلْقع : خالٍ ، قفر .

(٥) عاش قوم بعد موتِه على ما كان أعطاهم ، كما يحيا العشب بعد السَّيْل .

(٦) ظُلّع : عُرْج : لا يقدرون على السير .

تعـزّ أبَـا العبـاسِ عنـه ولا يكـن

جـزاؤكَ مِـنْ مَعْنٍ بأنْ تتضعضعا (١)

أبـى ذِكْـرُ مَعْـنٍ أنْ يُميـتَ فَعـالَـهُ

وإنْ كـانَ قد لاقى حِماماً ومَصرَعا (٢)

فمـا مـاتَ مَـنْ كـنتَ ابنَـه لا والّذي

لـه مثـلُ مـا أبقَـى أبوك وما سعى (٣)

فقال الحسين بن مطير : إنّما مَعْنٌ حسَنةٌ من حسَناتِكَ ، وفَعْلَةٌ من فَعلاتِكَ . فأمر له بألف دينار . ثمّ قال : سَلْ حاجتك . فقال :

بيضاءُ تَسْحَبُ مِنْ قيامٍ فَرْعَها وتغيبُ فيه وهو جَعْدٌ أسْحَمُ (٤)

فكـأنّهـا منـه نهـارٌ مُشْرِقٌ وكـأنّـه ليـلٌ عليهـا مُظْلِـمُ

قال : خُذْ بيدِها . لجاريةٍ كانتْ على رأسه . فأولدَها مُطَيْر بن الحسين ابن مطير .

الحسين بن مطير يغلو في مدح المَهْدي

كان الحسين بن مطير يعمل بنظم الشعر ، ويتكسّب به ، وكان يغالي في مَدْحه استجلاباً للعطاء ، على شاكلة قوله في المهديّ :

لو يعبُد الناسُ يا مهديُّ أفضلَهم ما كـان فـي النـاسِ إلا أنتَ معبودُ

لـو أنّ مـن نـورهِ مثقالَ خَرْدلةٍ في السُّوْد طُرّاً إذاً لابيضّت السُّودُ (٥)

---

(١) تتضعضع : تضعف ، ويضطرب أمرك . (٢) الحِمام : الموت .

(٣) شِيَمُ مَعْن أحيَتْ ذِكْرَ أبيه ، وكأنّ أباه لم يمتْ

(٤) فرعها : شعرها . أسحم : أسْوَد .

(٥) الخَرْدل : نبات عشبي يضرب المثل ببزوره في الصغر . طُرّاً : جميعاً .

حكمــة

طرَق الحسين بن مطير عــدّة أغـــراض شعرية سوى المدح ، والرّثاء كالحكمة ، والفخر ، والوصف ، والغزل . قال في الحكمة :

ولي كَبِدٌ مقروحةٌ مَنْ يبيعُنـي — بهـا كَبِداً ليستْ بذات قُروح ؟ (١)
أباها عليَّ النَّاسُ لا يشترونها — ومَنْ يشتري ذا عِلّة بصحيح ؟ (٢)

وأنشدَ له ابن قتيبة :

يضعّفني حِلْمي وكثرةُ جهلهمْ — علــيَّ ، وأنّـي لا أصـولُ بجاهــل
دفعتُكم عنّي ، وما دفعُ راحةٍ — بشيء إذا لم تستعنْ بالأنامِلِ ؟ (٣)

الفخر

ما زال يطلب العلا ، ويسعى إلى المجد ، وتحصيل عظيم السَّجايا حتى نحل جسمه ، وذهب لحمه ، وبـات كانَّما هوسَيْف مهنّد بتّار . على أنّه لم يأسف لنحافته ، لأنّ سِمَن الشّاب ما هو بأمَارةِ حسنة ، بل إنَّ هذا السِّمن مدعاةٌ للنَّحس والتشاؤم :

رأتْ رجلاً أودَى بِوَافِر لحمِه — طِلابُ المعالي واكتساب المكــارمِ (٤)
خفيفَ الحشَا ضَرْباً كـأنَّ ثيابَه — على قاطعٍ من جوهر الهند صارمِ (٥)
فقلـتُ لها : لا تَعْجَبِــنَّ فـإنّني — أرى سِمَـنَ الفِتْيـان إحـدى المَشـائِـمِ

---

(١) مقروحة : مجروحة . (٢) أباها : رفض الناس ذلك .

(٣) إنّ حلمَه ليزيدُه مسالمة ، وصَبْراً عن أن يخاصم جاهلاً ، وينحدر إلى مستواه . لكنّه يريد دفع أذيّتهم بالتي هي أحسن ، وهم لا يندفعون إلا بالقوّة .

(٤) أودى : ذهب . طِلاب : طلب . (٥) الحشا : ما دون الحجاب مما يلي البطن من كبد وطحال وكرش . رجل ضَرْب : خفيف ممشوق القدّ .

الوصف

بينما كان الحسين بن مُطَيْر عند والي المدينة المنوّرة إذْ هطَـلَ مَطرٌ غزير فقال له الوالي : صفْ لي هذا المطر . قال : دعْني أشرفْ عليه . فأشرف عليه ثمَّ نزلَ فقال :

كَثُـرَتْ لِكَثْـرَةِ قَطْـرِهِ أطبـاؤُهُ ... فـإذا تحلَّبَ فاضت الأطْبـاءُ (١)
ولــه رَبـابٌ هَيْـدَبٌ لـدفيفِـه ... قَبْـلَ التبعُّق دِيمـةٌ وَطَفَـاءُ (٢)
وكــأنَّ رَيِّقَــهُ ولمَّـا يحتفــلْ ... وَدْقُ السَّمـاءِ عجاجةٌ كَدْراءُ (٣)
وكأنَّ بـارقَــه حـريقٌ تلْتقــي ... ريــحٌ عليــه عَـرْفَـجٌ وألاءُ (٤)
مُستَضحكٌ بلَـوامعٍ ، مُستَبْصِرٌ ... بمــدامـعٍ ، لـم تُمْرِها الأقْذاءُ (٥)
فلــه بــلا حُزْنٍ ، ولا بمَسَرَّةٍ ... ضَحِـكٌ يؤلِّـفُ بينَـه ، وبُكـاءُ
حَيْرانُ متَّبـعٌ صَبـاهُ تقـودُه ... وجَنوبـه كـنفٌ لـه ووعـاءُ (٦)

---

(١) أطباؤه : أثداؤه . تحلَّب : اعتُصِرَ . لقد كثرتْ محالُّ انهمار المطر ، من الغيوم ، فإذا أراد الله بقوم خيراً سقط الغيث من تلك المحالّ .

(٢) رباب : سحاب . هيدب : متدلٍّ . دفيف : دبيب . التبعُّق : الابتعاج بالمطر . ديمة : سحابة مستمرة الهطول . وَطْفاء : دائمة السَّحِّ . لهذا الغيث سحاب له أذناب وذيول وقد جعل يسحّ لفترة طويلة ، ثمّ ثجّ ثجّاً بغزارة .

(٣) ريّقه : المطر اليسير . يحتفل : يجتمع . الودْق : المطر . كدراء : مكدّرة ، قاتمة . يشبّه أوائل الغيث قبل اجتماع متفرِّقة وتكاثفه بعجاجة قاتمة .

(٤) البارق : البرق . عرفج : شجر سهلي . ألاء : نوع من الشجر . إذا لمع البرق أشبه ناراً تتّقد من أشجار العَرْفج والألاء ، وتهبّ عليها ريح ، فتزداد اشتعالاً .

(٥) لم تُمْرِها الأقذاء : لم تستدرّها . يتحدّث عن البرق اللامع والغيث العذْب الصافي غير الكَدِر . (٦) الصَّبا والجنوب : نوعان من الرياح كانا يَوجّهان السَّحاب .

غَدِقٌ يُنَتِّجُ في الأباطح فُرَّقاً ... تَلِدُ السُّيولَ ومالها أسلاءُ (١)
غُرٌّ مُحَجَّلَةٌ دوالجُ ضُمِّنَتْ ... حَمْلَ اللِّقاحِ وكلُّها عَذْراءُ (٢)
سُحْمٌ فهُنَّ إذا كَظَمْنَ سَواجمٌ ... سُودٌ وهنَّ إذا ضَحِكْنَ وِضاءُ (٣)
لو كان من لُجَجِ السواحل ماؤهُ ... لم يبقَ في لُجَجِ السَّواحلِ ماءُ (٤)

مثلُ هذا النصّ الّذي ينفدُ صبرنا ونحن نقرؤه قد كان أمثال الأصمعي وأبي عمرو بن العلاء والفراهيدي يجدونه كنزاً لا يقدَّر بثمن .

وكان عبد الله بن المعتزّ وأبو هلال العسكري يعدّان الحسين بن مطير أحذق الشعراء في وصف السَّحاب . ولو كانا قالا ((مِنْ)) أحذق الشعراء لكانت العبارة أدقّ .

(١) غدِق : كثير القطر . ينتجّ : يولّد . فرق : منشقّة . أسلاء : جمع سلى ، وهو غشاء رقيق يحيط بالجنين . هطل الغيث العميم ، فسالت أودية بقدَرها . ويشبه نزول المطر بولادة مولود ، ولكن ليس له مشيمة .

(٢) غرّ : بيض . محجّلة : يتخلّل بياضها قطع داكنة . دوالج : مثقلة بالماء ، شخّص السّحب فشبّهها بالنساء التي تلد أو تحمل على سبيل الاستعارة المكنية .

(٣) سُحْم : سود . سواجم : سائلة منصبّة . إذا حزنتْ تلك الغيوم السوداء بكت فكان المطر ، وإذا ابتسمت انكشف لونها .

(٤) لم يكن يعرف الدورة المائية ، وأن الغيوم تأخذ مياهها مِنَ البحر . وقال أبو العلاء المعري :

والبَحْرُ يُمطره السحابُ ومالَهُ ... فضلٌ عليه ؛ لأنّه مِنْ مائِهِ

الغـزل

ألا حبّذا البيتُ الذي أنتَ هاجِرُهْ ... وأنـتَ بتَلْمـاحٍ من الطَّرْفِ ناظِرُهْ (١)
لِإنَّـكَ من بيتٍ لعينيَ مُعْجِـبٍ ... وأملح في عيني من البيتِ عامِـرُهْ
أَصُدُّ حَياءً أنْ يُلِمَّ بي الهـوَى ... وفيكَ المُنى لولا عدوٌّ أحاذِرُهْ (٢)
وفيك حبيبُ النفس لو تستطيعُه ... لماتَ الهوى والشَّوْقُ حينَ تُجاوِرُهْ (٣)
فإنْ آتِه لم أنْجُ إلا بظِنَّـةٍ ... وإنْ يأتِه غيري تُنَطْ بي جَرائِرهْ (٤)
وكـانَ حبيبُ النفس للقلب واتراً ... وكيفَ يحبُّ القلبُ مَنْ هو واتِرُهْ (٥)
فـإن يكن الأعداءُ أحْمَوا كلامه ... علينا فلن تُحْمَى علينا مناظِـرُهْ (٦)
أحبُّكِ يا سلمى على غير ريبةٍ ... ولا بأسَ في حُبٍّ تعفّ سرائرُهْ (٧)
ويا عاذلي لولا نفاسةُ حبّها ... عليكَ لما باليْتَ أنَّكَ خاتِرُهْ (٨)
بنفسيَ مَنْ لا بُدّ أنّيَ هاجرُهْ ... وما أنا في الميسورِ والعُسْرِ ذاكرهْ (٩)

---

(١) تَلْماح : لمح . الطَّرْف : العين . نعم المنزلُ منزلٌ ما عُدْتَ تؤمُّه ، وإنّما تُوليه نظرة خفيّة بمؤخّرة عينك كلّما مررت به ، لئلا يشعر أحد .

(٢) أصدّ : أُعرض . يُلمّ بي الهوى : ينتابني أمر الحبّ .

(٣) في ذلك البيت مَنْ يهوَى ، ولو أنّه حظي به لَعُوفِي هواه وانطفأ شوقُ البعاد .

(٤) إذا زاره ظُنّت به الظنون . وإذا زاره غيرُه حُمّل هو المسؤولية ، واتُّهم بأنه هو الذي بعثه .

(٥) واتر : قاتل من طول ما عانى من عذاب الهوى .

(٦) أَحْمَوْا : منعوا . حال الأعداء دون أنْ يلقاها ، فاكتفى بالكلام ، فلّما سدّوا سُبُلَهُ رضي بالنظر فقط .

(٧) ريبة : فُحْش . يحبّها حبّاً عفيفاً ((عُذْريّاً)) ، لا يقارفُ معه مأثمة ، ولا يرى فيه بأساً أو حراماً . على أنّه لو ملأ قلبه بحبّ الله ، وأشغلَ سرائره بذِكْره ، واستشعارِ قُرْبه ومراقبته ، لوجد في حبّ العارض الفاني بأساً .

(٨) خاتر : مختار .

(٩) الميسور : اليُسْر .

ومَنْ قَدْ لحاه الناسُ حتى اتّقاهم ببُغضـي إلا مـا تجنّ ضمائـره (١)
أحبُّك حُبّاً لن أُعنَّفَ بعـده محبّـاً ، ولكـنّي إذا ليـمَ عـاذِرُهْ
لقد ماتَ قبلي أوّلُ الحبّ فانقضى ولو مِتُّ أضحى الحبّ قد مات آخـرُهْ
كـلامُكِ يـا سلمى وإنْ قلَّ نافعي فـلا تحسبي أنّي وإنْ قـلَّ حاقِرُهْ
ألا لا أبـالي أيَّ حيٍّ تحمّـلُـوا إذا أثْمَدُ البَرقـاء لم يخْلُ حاضِـرُهْ (٢)

قصيدة أخرى له في الغزل

لقد كنتُ جَلْداً قبلَ أنْ تُوقِدَ النَّوى على كـبدي نـاراً بطيئاً خمودُهـا
ولـو تُـركِتْ نـار الهوى لتصرَّمتْ ولكـنَ شـوْقـاً كـلَّ يـومٍ يزيدُها
وقد كنتُ أرجـو أن تموتَ صبابتي إذا قـدمتْ أيّـامُهـا وعهودُها (٣)
فقد جُعلتْ في حبَّـةِ القلب والحشا عِهـادٌ تـولاها بشـوقٍ يُعيدُها (٤)
بمُرتّجَة الأرْدافِ هِيفٍ خُصـورُها عـذابٍ ثنـايـاها عجـافٍ قيودُها
مخصّرةِ الأوساط زانتْ عقـودَهـا بـأحسـن ممـا زيَّنتْها عقـودُهـا
يمنّيننـا حتـى تـرفَّ قلـوبُنـا رفيفَ الخُزامَى باتَ طَلٌّ يجودُها (٥)
وفيهـنَّ مِقْـلاقُ الـوِشـاح كـأنّها مَهـاةٌ بتـرْبـانٍ طويلٌ عُقودُها (٦)
وكنتُ أذودُ العَيْـنَ أنْ تَـرِدَ البُكا فقد وردتْ ما كنتُ عنـه أذودُها (٧)
هل الله عافٍ عن ذُنـوبٍ تسَلّفتْ أم اللهُ إنْ لم يُعفُ عنهـا مُعيدُهـا ؟

---

(١) لحاه : لامه ، وعذله .

(٢) تحمّلوا : ارتحلوا . أثْمَدُ البرقاء : اسم موضع كانت تنزل فيه من يتغزّل بها .

(٣) الصبابة : الحبّ والشوق . (٤) حبّة القلب : مهجته وسويداؤه . عهاد : عهود .

(٥) الخزامى : نوع من النباتات العطرية ، طيّب الرائحة . وترفّ : تختلج .

(٦) وشاحها : نسيج عريض مرصّع تشدّه المرأة بين عاتقها وكشْحيْها ، يريد أنها هيفـاء . مهاة : بقرة وحشية . تربان : اسم موضع . (٧) أذود : أدفع .

أسلوب الحسين بن مطير في شعره

الحسين بن مطير شاعر عاش ونشأ في البادية ، ولكنّه خالط أهل المدينة وعرف معالم الحاضرة ، وثقّف نفسَه ، وشعره صوّر كلّ هذه المسيرة الحيويّة .

١- فهو يكثر من الرجز ، ويجيد فيه إجادته في القصيد ، ومرَّ بنا أن أوّل ما نال به جائزة من الأمير معن بن زائدة أرجوزة ، ولا بأس أن أعرض شيئاً من أوّلها وشيئاً من قسم المديح . يقول في بدايتها :

حديث ريَّا حبَّذا إدلالُها
تسألُ عن حالي وما سؤالُها
عن امرىء قد شفَّهُ خيالُها (١)
وهيَ شفاءُ النَّفسِ لو تنالُها

ويقول فيها مادحاً :

سلَّ سيوفاً مُحدَثاً صِقالُها
صابٌ على أعدائِه وَبَالُها (٢)
وعند مَعْنٍ ذي النَّدى أمثالُها (٣)

٢- وله شعر متين ، مُحْكم السَّبْك ، يضاهي به الشوامخَ الكبار من الشعراء المحافظين ، يقول في مدح المهدي :

إليكَ أميرَ المؤمنينَ تعسَّفتْ بنا البيدَ هوجاءُ النَّجاءِ خَبُوبُ (٤)

---

(١) شفَّه : أنحله .   (٢) صاب : مرّ . وبالها : نتيجتها الصَّعبة .

(٣) الندى : الكرم .

(٤) تعسّفت : سارت في طريق ليس له معالم . البيد : الصحارى . هوجاء النجاء : سريعة العَدْو . خبوب : خفيفة الحركة .

ولو لم يكنْ قدّامَها ما تقـانفـتْ جبـالٌ بهـا مُغْبَـرّةٌ وسهوبُ (١)
فتىً هو من غيـرِ التخلّقِ ماجـدٌ ومِنْ غيـر تـأديبِ الـرجال أديبُ
علا خَلْقُه خَلْقَ الـرجالِ ، وخُلْقُـه إذا ضاقَ أخلاقُ الرجالِ رحيبُ (٢)
إذا شـاهدَ القوّاد سـار أمامهم جـريءٌ على مـا يتّقُـون وثوبُ
وإنْ غابَ عنهم شاهـدتهم مهابةٌ بها يُقْهَـر الأعـداءُ حيـن يغيـب
يعـفُ ويستحيي إذا كـان خـالياً كما عـفَ واستحيا بحيـثُ رقيبُ

ونرى هذه الجزالة المحافظة أحياناً في الموضوعات الوجدانية ، على شاكلة قوله متغزّلاً :

كـأنّنـا يـا سُلَيْمى لم نُلِـمَّ بكـم وتـحـتنـا عَلَسِيّـاتٌ مَـلاجِيـجُ (٣)
ولم نكلّمْكِ في الحسادِ قد حضروا وفي الكلام عن الحاجات تَحْلِيـجُ (٤)
ولم نقلْ يوم سارتْ عيسُكُم عنَقاً والدوسريُّ بجَنْب السّاج مجروج (٥)
سقى سقى الله جيراناً لنا ظعنـوا لما دنَـا مـن رياض الحَزْن تهييج (٦)

---

(١) سهوب : أراض مستوية واسعة . واسم ((لم يكن)) أتى في البيت اللاحـق ، وهـو كلمة ((فتى)) .

(٢) رحيب : واسع .

(٣) لم نُلمّ : لم نزرْ ، لم نَطُفْ . علسيات : نوق مشتراة من بني علـس وكـانت عندهـم نوق نجيبة . ملاجيج : ذات أصوات وجلبة .

(٤) تحليج : تصفية وراحة .

(٥) العيس : النوق البيضاء . العَنَق : نـوع مـن السَّيْر السريع . السَّـاج : شـجر صلـب الخشب . الدوسري : الجمل الضخم الشديد . مجروج : قلق .

(٦) الحَزْن : الأرض الصخرية الصُّلبة .

وهذا المنحى من الغزل البدوي كان يجيدُه الحسين ، وإنْ كان أهل المدن يستغربون ما فيه من لغة وَحْشيّة غريبة .

٣- لكنّ للحسين غزلاً آخر رقيقاً ، طليّ الأسلوب ، ومرّت بنا بعض النماذج التي تصلح لذلك دليلاً ، وهذا مثال آخر ، يقول :

أينَ أهلُ القِبابِ بالدَّهْناءِ أينَ جيراننا على الأحساءِ (١)
جاورونا والأرضُ مُلْبَسةٌ نَوْ رَ الأقاحي تُجادُ بالأنْواءِ(٢)
كلَّ يومٍ بأقحوانٍ جديدٍ تضحكُ الأرضُ من بكا السَّماءِ

والأبيات فوقَ طلاوتها تنطوي على تصوير بديع ، فنَوْرُ الأقاحي ليس نباتاً على الأرض ، بل هو لباس ، وهذه هي أيضاً تضحك ، وتلكم السماء تبكي ، ويقابلُ الشاعر بين ضحك الأرض وبكاء السماء على نحو يسبق فيه أبا تمّام في ظاهرة (نوافر الأضداد) التي تحدّث عنها الدكتور شوقي ضيف .

٤- فلا يبدو عند الحسين بن مطير أسلوب الشعر البدوي فحسب ، بل نرى عنده الأسلوب الحضري الذي تأثّر بالثقافة ، وانطلق يقلّب الفِكَر على أوجهها ليغوص وراء المعاني الدقيقة ، ومن قديم عُرفت في المدُن سبُل الاحتيال أكثر مما هي في البَدْو ، ونراه يقدّم لنا من خلال تجربته هذه الحِكَم :

تقلّبْتُ في الإخوانِ حتى عرفتُهمْ ولا يعرفُ الإخوانَ إلا خبيرُها
فلا أحْرِمُ الخلانَ حتى يُصارموا وحتى يسيروا سيرةً لا أسيرُها (٣)
فلا تكُ مغروراً بمِسْحةِ صاحبٍ من الودّ لا تدري علامَ مصيرُها

---

(١) الدهناء والأحساء : منطقتان معروفتان .

(١) نَوْر : زهر . تجاد بالأنواء : ينزل عليها مطر كثير : النوء هنا : المطر الشديد .

(٢) أحرم : أقطع .

ويسترسل الحسين في عرض تجاربه في الحياة وتقلّبها على المرء من يُسْر إلى عُسْر ، أو كدورة بعد صَفْو :

وقد تغدرُ الدنيا فيُضحي غنيُّهـا — فقيراً ، ويغْنَى بعد بؤسٍ فقيرُها
وكائن ترى من حالِ دنيا تغيّرتْ — وحـالِ صفَا بعد اكدارٍ غديرُها
ومن طامعٍ في حاجةٍ لنْ ينالَهـا — ومِـنْ يـائسٍ منها أتاه بشيرُها
فنفسَك أكرمْ عن أمور كـثيـرةٍ — فمـالكَ نفسٌ بعدَها تستعيرُها

وهذه المقابلات وألوان الطِّباق أو نوافر الأضداد نراها أيضاً في بعض مدائحه ، يقول في المهدي :

له يومُ بؤسٍ فيه للنّـاسِ أبْؤسٌ
ويـومُ نعيـمٍ فيـه للنـاس أنْعُـمُ
فيُمطرُ يومَ الجود من كفِّه الندى
ويقطـرُ يـومَ البـأس مـن كـفّـه الدّم
ولو أنَّ يومَ البأسِ خلَّى عقـابَه
على النَّاس لم يُصبحْ على الأرض مُجْرِمُ
ولو أنَّ يومَ الجودِ خلَّى يمينَـه
علـى الناسِ لم يُصبح على الأرض مُعْدِمُ

وفي الأبيات مقابلةٌ وتعاكس في المعاني ، ورد العجز على الصدر ، ولفٌّ ونشر ، وتصوير بديع .. وكل ذلك يجعله سبّاقاً لأمثال مسلم بن الوليد وأبي تمام والمتنبي الذين أكثروا من هذه الأساليب .